التبخير واستخداماته في معالجة بعض الأمراض عند العراقيين القدماء

د. عبدالرحمن يونس عبدالرحمن

كلية الآثار/ قسم الحضارة

مستخلص البحث

تفيد النصوص المسمارية المتعلقة بالطب أن أسلوب التبخير كان من الأساليب العلاجية التي استخدمت في العراق القديم في معالجة العديد من الحالات المرضية أو الإسهام في علاجها. وبغض النظر عن الأسباب التي أدت إلى حدوث المرض ونظرة العراقيين القدماء إلى ذلك فإن المعالجة بالتبخير كانت من ضمن أساليب (الأشِبُ) Ašipu الكهنوتية ومعالجات الطبيب (آسو) Asū الطبية، ونظراً للاعتقاد السائد قديماً لدى سكان بلاد الرافدين بأن المرض في نشأته هو من عمل الآلهة بسبب غضبها على البشر ممن اقترف ذنباً مشيناً بحقها أو تجاوز على حرماتها أو عصىٰ والديه أو اقترف ذنباً بحق إخوته أو أحد أفراد أسرته أو عشيرته أو غير ذلك من الأسباب الدينية، فإن الآلهة كانت تسلط عليهم الأرواح الشريرة المسببة للمرض، وكان معالجة هذه الأمراض في نظرهم لاتتم إلا بإزاحة تلك الأرواح عن جسم المريض، وإحدى الوسائل المهمة التي اعتمدها الأشِبُ في ممارساته الكهنوتية لطرد الأرواح الشريرة أو الإسهام في طردها كان التبخير ونشر البخور بالقرب من المريض أو في المحيط الذي كان يعيش فيه إذا بينت ذلك العديد من النصوص المسمارية ذات العلاقة بالممارسات الكهنوتية الخاصة بالمعالجة. وفضلاً عن ذلك فإن التبخير وبحسب النصوص الطبية والوصفات العلاجية كان أيضاً من ضمن الأساليب التي اعتمدها الطبيب (آسو) الذي كان دوره قد بدأ يتضح في العلاج بشكل مستقل عن الأشِبُ منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد، واتحفتنا العديد من تلك النصوص بما يشير إلى أن أسلوب التبخير كان يستخدم لمعالجة العديد من الحالات المرضية المختلفة ابتداءً من الرأس وحتى القدمين، منها ما كان له علاقة بأمراض الرأس والعيون والآذان وأمراض الصدر والمعدة والأمراض البولية وحالات التسمم وأمراض القدم وغيرها من الحالات المرضية الأخرى. وبالنظر لأهمية هذا الأسلوب في المعالجة فإن استخدامه لم يقتصر على سكان بلاد الرافدين حسب، وإنما وُجد ما يماثله أيضاً في الطب المصري القديم وغيره من طب الشعوب القديمة وهو ما يزال إلى وقتنا الحاضر يستخدم لمعالجة العديد من الحالات المرضية المختلفة. ومن أجل إلقاء الضوء على هذا الموضوع فقد تم تقسيم البحث إلى أربعة محاور، تناول الأول أصل اشتقاق كلمة التبخير وبعض معانيها في اللغتين العربية والأكدية، وتضمن المحور الثاني استخدامات التبخير في الطقوس الدينية والممارسات الكهنوتية ذات العلاقة بالعلاج، أما المحور الثالث فقد ركز على نماذج من الوصفات الطبية ذات العلاقة بمعالجة الأمراض عن طريق التبخير، وشمل المحور الرابع أسلوب معالجة بعض الأمراض في الوقت الحاضر بالتبخير وطرق استعمالاته.

المقدمة

يعد أسلوب المعالجة بالتبخير من الأساليب التي ما تزال تستخدم حتى وقتنا الحاضر لمعالجة بعض الحالات المرضية التي يصاب بها الشخص كالزكام مثلاً أو التهاب القصبات أو التهاب ذات الرئة أو بعض أمراض أو المعدة والصدر وغيرها من الحالات المرضية الأخرى، وهذا النوع من أساليب العلاج يعد من الموروث الحضاري الطبي لسكان بلاد الرافدين إذ يمتد بأصوله إلى عصور سبقت الميلاد بأكثر من ألف سنة تقريباً كما أثبت ذلك العديد من النصوص المسمارية الطبية والنصوص الكهنوتية ذات العلاقة بالطب، وبحسب تلك النصوص فإن أولى الممارسات التي تضمنت استخدام أسلوب التبخير للأغراض العلاجية كانت الممارسات الكهنوتية التي ابتدعها الكاهن المعزم (أشِبُ) Ašipu واستخدم فيها البخور ودخان المشاعل الناجم عن حرق النباتات والأخشاب والمواد السحرية التي اعتقد بأهميتها في تنفير الأرواح الشريرة المسببة للمرض وطردها من جسم المريض. وإلى جانب ممارسات الأشيبُ الكهنوتية، فإن الوصفات الطبية والعلاجية، التي كان الطبيب (آسو) Asū يهيئها اتحفتنا هي الأخرى باستخدامات هذا الأسلوب لمعالجة العديد من الأمراض التي كانت تصيب الجسم البشري ابتداءً من الرأس وحتى القدمين. وبالنظر لأهمية أسلوب التبخير في المعالجة الطبية واستمرار مداومة الناس على استخدامه إلى الوقت الحاضر في العراق وما يجاوره ولكونه يشكل جزءً مهماً من الموروث الحضاري الطبي لسكان بلاد الرافدين، فقد تم تناول هذا الموضوع ضمن أربعة محاور، تناول الأول أصل اشتقاق كلمة التبخير وبعض معانيها في اللغتين العربية والأكدية، وتضمن المحور الثاني استخدامات التبخير في الطقوس الدينية والممارسات الكهنوتية ذات العلاقة بالعلاج، أما المحور الثالث فقد ركز على نماذج من الوصفات الطبية ذات العلاقة بمعالجة الأمراض عن طريق التبخير، وشمل المحور الرابع أسلوب معالجة بعض الأمراض في الوقت الحاضر بالتبخير وطرق استعمالاته.

المحور الأول: أصل اشتقاق كلمة التبخير وبعض معانيها في اللغتين العربية والأكدية

ورد في معاجم اللغة العربية ما يشير إلى أن أصل كلمة التبخير مشتقة من الفعل الثلاثي (بَخَرَ) فيقال بَخَرَ الماءُ بَخَراً وبُخاراً أي صعد بخاره[١]، وتبخرتِ القِدرُ تبخراً، أي ظهر بخارها وارتفع دخانها[٢]، وكل شيء يصعد من ساخن أو حار يسمى في اللغة بخاراً أو دخاناً وجمعه (أبخرة)[٣]، وبَخَّر فلانٌ فلاناً بتشديد حرف الخاء يعني دخنه بالبخور، ويقال أيضاً تبخر فلانٌ، أي تدخن بالبخور، وكلمة البخور كما هو واضح هي من اشتقاقات كلمة (البخر) وتعني ما يُتَبَخَرُ به من الصموغ والنباتات والعطور وغيرها، ومنها أيضاً اشتق اسم الأداة التي تستخدم في عملية التبخير والتي يطلق عليها اسم (لمبخرة) وجمعها (مباخر)[٤].

ومن المعاني التي دلت عليها كلمة التبخير فضلاً عن معنى الطِيب والتطَيب هو التطهير فيقال "استخرج بخاره وطيبه بالبخور وثياب المريض ونحوها طهرها مما عسى أن يكون قد علق بها من جراثيم"[٥]. وهذا المعنى يعطي تصوراً واضحاً مفاده أن أسلوب التبخير هو أحد الوسائل المستخدمة في عملية التطهير ومعالجة بعض الحالات المرضية التي قد تكون أسبابها الجراثيم التي تعلق بجسم المريض أو ملابسه أو غير ذلك من الأمكنة الأخرى. كذلك من اشتقاقات كلمة البخَر ما دلّ معناه على الرائحة الكريهة أو النتنة الخارجة من الفم فيقال بَخِرَ الفم بخراً بكسر حرف الخاء أي إنتنت ريحه[٦]

وخرج منه بخاراً ذا رائحةٍ كريهة، ومنها أيضاً ما دلّ معناه على (الباخرة) وهي السفينة الكبيرة وسميت بالباخرة كونها تسير بقوة البخار وجمعها (بواخر)[٧]. وهناك العديد من الاشتقاقات الأخرى لهذه الكلمة لا حصر لذكرها في هذا البحث.

وورد في النصوص المسمارية مدوناً باللغة الأكدية ما يطابق كلمة التبخير أو التدخين في اللغة العربية لفظاً ومعنى، ومن ذلك المصطلح الذي ورد بصيغة (بَخرُ) baḫru[٨]، أو (بَخروتُ) baḫrūtu وتعني حار أو ساخن[٩]، فيما وردت كلمة البخور أو الدخان بصيغ مختلفة من (qutrēnu) أو (qutru)[١٠]. وأشاروا للتدخين بالمصطلح (qutaru)[١١].

أما المبخرة أو أداة التبخير فقد عبروا عنها بالمصطلح niğnaguttu، أو niğnaqqu[١٢].

المحور الثاني: استخدامات التبخير في الطقوس الدينية والممارسات الكهنوتية ذات العلاقة بالتطبيب

كان الاعتقاد السائد لدى سكان بلاد الرافدين وغيرهم من المجتمعات القديمة أن من الأسباب الرئيسة للإصابة بالمرض هو الغضب الإلهي على البشر ممن اقترف ذنباً مشيناً بحق الآلهة وتجاوز بسلوكه وتصرفه وكلامه على حرماتها وأماكنها المقدسة أو ممن اقترف ذنباً بحق والديه أو أحد أفراد عائلته أو تناول على بعض الأطعمة التي كان يحرم تناولها في أوقات معينة كما يشير إلى ذلك النص الآتي: "... وفي اليوم الخامس أن لا يأكل لحم خنزير وإلا فإن دعوى ستقام ضده وأن لا يأكل لحماً مطبوخاً فإن العفريت المتجول سوف يضربه..."[١٣]. أو غير ذلك من الأسباب الدينية الأخرى. ولطالما كانت العفاريت في اعتقاد سكان بلاد الرافدين قديماً هي موجهة من الآلهة على الشخص المراد إيذاؤه بسبب معصيته فإن معالجتها وطردها من أماكن وجودها وعلى وجه التحديد من جسم الشخص المريض كانت لا تتم في نظرهم إلا عن طريق الآلهة أيضاً، ولاشك أن ذلك كان يتطلب إيجاد من يقوم بالتوسط عندها للتعرف على موقفها بشأن مستقبل حالة المريض الصحية، وأكثر فئات المجتمع ارتباطاً بالجانب الديني والأقرب للقيام بدور الوساطة بين الآلهة وأفراد المجتمع كان الكهنة، وانطلاقاً من هذا المفهوم فقد اختص صنفٌ منهم بالقيام بدور التطبيب والمعالجة الروحية أطلق على أحدهم اسم (أشِبُ) ومعناه في اللغة الأكدية "طارد الأرواح"[١٤]. ولأجل ممارسة هذا الدور كان لابد للأشِبُ من إيجاد وسائل وأساليب للمعالجة ابتدعها وطغى على معظمها الطابع السحري الكهنوتي منها، قراءة الرقى والتعاويذ، وعمل الأحجبة والتمائم التي كانت تعلق حول عنق المريض، وعمل الدمى والتماثيل الشبيهة بأشكال الموتى والأرواح الشريرة، واستخدام نوع من الحيوانات بديلاً عن الرجل المريض، وعمل الدوائر السحرية، وغيرها من الأساليب الأخرى[١٥]. وما هو مهم في هذه الأساليب والممارسات الكهنوتية التي تفنن الأشيبُ في عملها لأغراض دعائية قبل أن تكون علاجية وابتدعها لإقناع المرضى وعامة الناس بأهميتها في العلاج، أن معظمها كان يتضمن الإشارة إلى ضرورة تهيئة المباخر والمواقد ونشر البخور في أثناء القيام بطقس المعالجة لطرد الأرواح الشريرة التي اعتقدوا بوجودها في جسم المريض أو بيته، ويمكن أن نتلمس أهمية هذا الأسلوب (التبخير) في ممارسات الأشِبُ الكهنوتية الخاصة بالمعالجة من خلال ما ورد في بعض الرقى والتعاويذ التي كانت تستخدم لهذا الغرض، ومنها ما جاء على لسان الأشِبُ " أنا الكاهن الساحر الذي تتجلى به أوامر أريدو[١٦]، أنا رسول المعبود أيا[١٧]، أنا حكيم مردوك[١٨]، وبكر أيا، أنا الرسول طارد الأرواح لأريدو وأبرع السحرة، وأنت أيها الشيطان الشرير إبرح هذا المكان، أنت تعيش في الخرائب عد إلى خرائبك

لأن المعبود أيا أرسلني ووضع حكمته في فمي ووضع في يدي مبخرة لأطرد هؤلاء السبعة[١٩]، وأصدر قراري.. فأنا الصقر المرفرف من أمام وجهك الشرير وأهاجمك بيدي اليسرى وألبسك ثوب الويل وهو ثوبٌ مجيد لجسد تقمصته أيها الشيطان.."[٢٠]. وتؤشر هذه التعويذة كما هو ملاحظ أن الكاهن المعالج كان يحمل بيده مبخرة لطرد الأرواح الشريرة المسببة للمرض وتنفيرها من جسم المريض، وكان ذلك كما يبدو ضمن طقس ديني دعي فيه الأشِبُ إلى دار الشخص المريض وبدأ استحضاراته من عتبة الباب، إذ ورد على لسانه في ذات التعويذة ذاتها".. ومن سم البراغيث؟ الذي وضعته على عتبة باب.. ونبات على صقالة الباب، وأمسك بلجام كما أمسك الحمار جسده، أيتها الروح الشريرة غادري المكان أرحل أيها الشيطان"[٢١]. وفي تعويذة أخرى وضمن طقس جديد للمعالجة موجه من المعبود انكي/ ايا إلى ابنه مردوك نقرأ ما يشير أيضاً إلى أهمية استخدام البخور ونشرها في موقع المعالجة والمناطق المحيطة به، ومما جاء في هذه التعويذة بهذا الصدد " اذهب يا ولدي مردوك خذ خروفاً.. وضعه أمام الرجل المريض وانتزع قلبه وضعه في يد الرجل المريض واقرأ تعويذة اريدو، والقلب الذي انتزعته هو طعام.. الذي تعوض به خطيئة الرجل المريض، اجلب مبخرة ومشعلاً وانشر البخور في الشوارع واربط الرجل بالرباطات وكرر تعويذة اريدو وأدعو الآلهة العظيمة أن تزيل الروح الشريرة أو الشيطان الشرير أو الشبح الشرير أو العفريت الجاثم أو الحمى أو المرض العضال من جسد هذا المريض وتغادر بيته.."[٢٢]. ويظهر من خلال ما ورد في هذه التعويذة وقدر تعلق الأمر بالتبخير أن المباخر والمشاعل كانت حاضرة ضمن هذا الطقس، وأن إصدار الأوامر بنشر البخور في بيت الرجل المريض موقع المعالجة، كما تنوه إلى ذلك التعويذة، وكذلك في الشوارع المحيطة بالدار كان جزءً مهماً من طقس المعالجة إذ من خلاله كانت تتم عملية التطهير وطرد الأرواح الشريرة ليس من جسم المريض فحسب وإنما أيضاً من بيته ومن المناطق المجاورة له.

وأحياناً يرد في بعض التعاويذ الخاصة بمعالجة المرضى تحديد المدة الزمنية التي تبقى فيها المباخر متقدة وقائمة بواجب التبخير، ومما جاء في إحدى الممارسات بهذا الخصوص "... اشعل ثلاثة أيام نهاراً مبخرة فيها صمغ العرعر... واتلو بين يدي شمش[٢٣] ثلاثة أيام من أجل المريض: أيها الشرير إنك من هذا اليوم مفصول عن جسم فلان، منبوذ.. ومطرود، الآلهة أو الإله الذي وضعك قد فصلك عن جسم فلان المريض"[٢٤]. ويبدو مما جاء في التعويذة آنفة الذكر أن الحالة المرضية للشخص المريض ربما كانت تتطلب في نظر الكاهن المعزم استمرار عملية التبخير لمدة ثلاثة أيام متتالية أملاً في شفائه وإزاحة العفريت الجاثم في جسمه إلى الخارج.

كذلك تضمنت تعاويذ (لمشتُ) ما يشير أيضاً إلى استخدام أسلوب الحرق والتدخين في معالجة بعض الأمراض التي اعتقد العراقيون القدماء بأن سببها هو العفريتة (لمشتُ)، ومما جاء في طقس المعالجة بهذا الخصوص " خذ طيناً من الأرض وأصنع شكلاً للعفريتة لمشتُ وضعه عند رأس المريض، بعدها املأ موقداً بالرماد وضع خنجراً فيه، ثم ضع الموقد ثلاثة أيام بجانب المريض وفي نهاية اليوم الثالث اضرب شكل العفريتة لمشتُ بالخنجر ثم احرقه في زاوية من زوايا البيت "[٢٥].

وإلى جانب الممارسات الكهنوتية فإن التبخير كان أيضا من ضمن بعض الوصفات العلاجية السحرية التي كان الاشب يستخدمها إلى جانب الرقى والتعاويذ لمعالجة بعض الأمراض التي اعتقد بأسبابها الدينية ونسبها إلى يد عفريت أو شبح كما تشير إلى ذلك الوصفة الآتية الخاصة بمعالجة إحدى الأمراض التي تصيب الأذن ومما جاء فيها: "إذا أمسكت يد شبح رجلاً وأخذت أذنيه [بالغناء ؟] يأخذ

عنبراً سائلاً وشعر حصان ودم حية ونبتة kisiku(؟) والسيمن semen ويضع أصابعه في أذنه ويقول: مهما تكون ليقيدك أيا، ثم يعمد بعد ذلك إلى أخذ سن أنثى وعل وقرن ثور وبهما يبخر أذنيه"[٢٦]. وبغض النظر عن أسباب المرض فإن ما ورد في هذا النص يشير إلى أن أسلوب التبخير والتدخين كان هو الأسلوب الذي استخدم لمعالجة آلام الأذن التي يعاني منها المريض.

كذلك نقرأ في الوصفات العلاجية الخاصة بمعالجة أمراض القدم مثلاً ما يشير أيضاً إلى استخدام التبخير في المعالجة مُعزَزاً بالرقى والتعاويذ؛ إذ تذكر الوصفة الآتية "ضع ثلاثة عقاقير في مبخرة وبخر بها قدمي المريض وردد التعويذة الآتية: ليتعافى من أسفل ويتعافى من أعلى"[٢٧]. وتشير هذه الوصفة العلاجية كما يبدو إليّ أن استخدام الاشبُ للعقاقير ما كان ليحقق غرضه في العلاج إلا من خلال إضفاء الطابع السحري عليها وتعزيزها بالرقى والتعاويذ.

كذلك وردت الإشارة إلى استخدام المبخرة في وصفات علاجية أخرى ضمن بعض الطقوس الدينية التي كانت تهدف إلى علاج أحد الأورام التي كانت تصيب القدم، ومما جاء في إحدى تلك الوصفات " إذا مرض الرجل بالورم لتشهيره في أطلال معبد فعليه أن يذهب إلى الأطلال في ضوء الشمس ويضع مبخرة من تربنتين الصنوبر في ذلك المكان ثم يجمع عصير الزئبق ويضع سبعة أرغفة كبار وسبعة أرغفة صغار فوق العصير وفي الشمس ثم يملأ إناء بالماء وآخر بالبيرة ويضعها مقابل العصير وفي أثناء تحضير ذلك يقول: لقد اقترفت التشهير في معبد معروف حيث توجد الآلهة العظام في ذلك اليوم حيث كان الشيطان... أمام الشمس وسوف يشفى"[٢٨]. وفي معالجة أخرى مماثلة نقرأ ما يأتي " وطأ ماءً غير طاهر أمام الإله دعه يجمع خضاراً وإناء يملؤه بالماء وآخر بالجعة... ويقول يا ايا أغفر لي وأدخلني في حكمتك الصائبة... وعندما يقول ذلك دعه يحني نفسه ويسكب الماء والجعة ويمسك المبخرة بيده اليسرى ويغمسها سبع مرات وفي أثناء ذلك يقول عسى ايا أن يمنحني الانطلاق "[٢٩]. وأحياناً قد لا يتوصل القائمون على الطب الكهنوتي من معرفة المرض الذي يعاني منه المريض ولن تجدي جميع الأساليب المعدة للعلاج بما في ذلك أسلوب التبخير في تطهير المريض وإزاحة المرض عنه، كما تشير إلى ذلك إحدى الرسائل الآشورية الملكية بهذا الخصوص على لسان المريض نفسه " إن مرضي يتفاقم ولا أجد شيئاً ناجعاً شكوت مصابي إلى آلهتي إلا أنها لم تحرك ساكناً ولم يقدر العراف (بارو) بالعرافة من تحديد حالتي ولم يُفسر مفسر الأحلام (سائيلُ) من خلال تقديم طقس البخور حالتي.. ولم يقدر الساحر (مشمشُ) من خلال السحر طرد السخط عني، ترى من أين تأتي الأشياء الشريرة فأعراضي حيرت (المشمشُ) وأذهلت طوالعي (البارو) و(الأشِبُ) لم يشخص طبيعة مرضي ولم يضع (البارو) حداً زمنياً لعلتي "[٣٠].

وفضلاً عن الممارسات الكهنوتية ذات العلاقة بالعلاج فإن رضا الآلهة على البشر كان في نظرهم مرهوناً أيضاً بتقديم القرابين والنذور والصلوات التي يؤديها الشخص للآلهة ومن ذلك البخور، إذ نقرأ بهذا الصدد " قدم الخضوع كل يوم لمعبودك، الأضحيات والصلوات والبخور الواجب، ليكن قلبك نقياً أمام معبودك، إن هذا هون ما يرضي المعبود.."[٣١].

المحور الثالث: الوصفات الطبية ذات العلاقة بمعالجة الأمراض عن طريق التبخير[٣٢]

إلى جانب الأساليب العلاجية التي كان يقوم بها الكاهن المعزم (أشِبُ) والتي سبقت الإشارة إليها ضمن المحور الثاني، فإن الطب في العراق القديم ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد بدأ يتجه نحو معالجة

الأمراض معتمداً بالدرجة الأساس على الأعراض المرضية في تشخيص الأمراض وليس على التكهنات كما كان عليه الحال بالنسبة للطب الكهنوتي، ومارس هذا النوع من التطبيب أطباء أطلق على أحدهم باللغة الأكدية اسم (آسو) Asū[٣٣]، شخصوا الأمراض ووضعوا لها العلاج وفقاً لنوع الحالة المرضية ومدى خطورتها على المريض، فمنها ما كان يعالج بالأدوية داخلياً أو باستعمالاتها الخارجية، ومنها ما كان يعالج بالجراحة وهي الحالات الخطرة التي كانت تتطلب إجراء عمل جراحي سريع لاستئصال المرض وإيقاف مضاعفاته. وقد أثبتت النصوص المسمارية ذات العلاقة بالطب المعرفة الواسعة لأطباء العراق القديم بأنواع الأمراض التي انتشرت قديماً وأسباب حدوثها وكيفية معالجتها واكتسبوا خبرة واسعة في مجال تحضير الأدوية وطرق استعمالها[٣٤]، وأشارت تلك النصوص ذات العلاقة بالوصفات العلاجية الى أن أسلوب التبخير أو التدخين كان واحداً من الأساليب التي استخدمت لمعالجة العديد من الحالات المرضية، ومن ذلك ما له علاقة بأمراض العين؛ إذ ورد في إحدى الوصفات العلاجية من الطب الآشوري ما يشير إلى أن بعض أمراض العين كانت تعالج بأسلوب التبخير أو التدخين، ومما جاء في إحدى الوصفات الطبية بهذا الخصوص: "...القواقع، الزيت النقي... تحرق... الدخان في عينيه وسوف يشفى"[٣٥]. وعلى الرغم من أن الوصفة آنفة الذكر لاتوضح نوع الإصابة بالعين، إلا أنه من الواضح أن علاجها كان عن طريق تبخيرها بدخان بعض المواد التي كانت مُعدة لهذا الغرض.

وذكرت بعض النصوص الطبية ذات العلاقة بأمراض الأذن، وكذلك بعض الرسائل الملكية من أواخر العصر الآشوري الحديث أن العلاج بالتبخير كان أسلوباً معمولاً به لمعالجة بعض أمراض الأذن، وربما كان الأسلوب الأنجح لمعالجة بعض الحالات المرضية الخاصة بالأذن، كما نقرأ ذلك في الوصفة الآتية: "يجب عليك تبخير أذنيه بالكبريت والشمار وجذور نبات الغار وبنار تصدر عن حرق الشوك"[٣٦].

إن الوصفة المذكورة أعلاه تؤكد على وجوب استخدام التبخير لمعالجة إحدى الحالات المرضية الخاصة بالأذن بما يدلل على أهمية هذا الأسلوب ونتائجه الإيجابية في المعالجة والتطبيب. ومع أن بعض الوصفات الطبية لاتشير صراحة إلى نوع المرض المعالج بالتبخير، إلا أن ذلك لم يكن نمطاً عاماً لجميع الوصفات، فهناك من الوصفات العلاجية الأخرى ما يشير إلى نوع الألم أو المرض الذي يعاني منه المريض وأسلوب علاجه، إذ ورد بهذا الخصوص في وصفة طبية لمعالجة إحدى أمراض الأذن المعروف بـ(طنين الأذن) ما يأتي: "إذا آلمت الرجل أذناه (غنت أذنيه) خذ شحم كلية ثور وروث الغزل وجوزة الطيب ونشارة الخشب وضعها على النار ثم بخر بها أذنيه"[٣٧]. ولمعالجة المرض ذاته نقرأ في وصفة أخرى: "بخر الأذنين ببذور الجنبير وبذور الغار والعنبر السائل... وشعر الحصان والصمغ بواسطة النار"[٣٨]. وقد يتحدد التبخير حصراً داخل الأذنين بأسلوب معين ومواد محددة كما تشير إلى ذلك الوصفة الآتية: "يجب التبخير داخل أذنيه بتربنتين التنوب، والأرز، وعود العوج، والقنة، والزئبق، وهذه الأدوية تنقي أذنيه بواسطة النار"[٣٩].

ولاشك أن تركيب الوصفات الطبية وأسلوب التبخير بها كان يختلف باختلاف نوع الحالة المرضية تماماً كما هو الحال بالنسبة للوصفات الدوائية، وأحياناً بعض الحالات المرضية كانت تستوجب الاستمرار بالتبخير لأكثر من مرة كما تشير إلى ذلك الوصفة الآتية: لثلاث مرات تبخر أذنه اليمنى ولثلاث مرات تبخر أذنه اليسرى"[٤٠].

وإلى جانب النصوص الطبية الخاصة بالوصفات العلاجية، فقد تضمنت الرسائل الملكية هي الأخرى ما يشير إلى أن أسلوب التبخير كان أيضاً من ضمن الأساليب التي كان ينصح به الطبيب لمعالجة بعض

الأمراض التي تصيب الأذن كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ومما جاء في إحدى تلك الرسائل الموجهة من الطبيب آرَد-نَنَ إلى الملك الآشوري آشور – اخي – ادنا (أسرحدون)[٤١] حول أسلوب معالجة إحدى أمراض الأذن التي كان يعاني منها ولي عهده، نقرأ على لسان الطبيب: " عندما زرت ولي العهد، قال لي: كل جسمي أصبح جيد (معافى) (و) قلب(ي) طيب (مسرور)، عسى سيدي الملك أن يكون مسرور، (وبالتالي) سأبعث لك (علاجاً بهيئة) تبخير (ومكون من) زيت نبات اللبان (و) زيت نبات الجولق، (والعلاج) الذي سأبعثه يقطر في الأذن (و) بعد أن يقطر، يبخر (بها) كما بخرت (سابقاً)..."[٤٢]. وتؤكد هذه الرسالة كما هو واضح على أهمية التبخير في علاج إحدى أمراض الأذن، ويبدو أن النتائج الإيجابية للمعالجة بهذا الأسلوب دفعت الطبيب إلى تكرار الوصفة للمريض وبالطريقة نفسها التي استخدمت سابقاً.

واستخدم أسلوب التبخير عن طريق الأنف أو الفم لمعالجة بعض أمراض الرأس، إذ تذكر إحدى الوصفات بهذا الصدد: " إذا احتوى (رأس) رجل (على مرض) آشو ašū (يستعمل لأجل شفائه) نبات الخربق الأسود (و) ضمخ نبات القنة (و) نبات الكركم، (هذه النباتات) توضع على النار وتبخر داخل فمه ومناخيره... وسوف يشفى "[٤٣]. وعلى الرغم من عدم معرفة نوع المرض المصاب به المريض إلا أن الوصفة الطبية لشفائه كانت عن طريق التبخير من داخل الفم والأنف. كذلك من الحالات المرضية التي اعتقدوا بإمكانية معالجتها بطريقة التبخير هو إصابة الشخص بما يشبه ضربة الشمس؛ إذ نقرأ في إحدى الوصفات العلاجية بهذا الخصوص: " إذا مرض الرجل وكأن به ضربة شمس فلثلاثين يوماً سبعة أكوم من putrid... والكبريت الأسود يبخر به "[٤٤]. وعالجوا بعض أمراض الأنف بالأسلوب ذاته واستعلموا لهذا الغرض مجموعة من النباتات يوضحها النص الآتي: " [× نبات] الخربق الأسود (و) صمغ نبات القنة (و) نبات الكركم (هذه النباتات) توضع على النار وتبخر (بها) مناخيره..."[٤٥].

وتفيد المعلومات الطبية المتعلقة بأمراض الرئة، أن التبخير كان واحداً من الأساليب التي استخدمت أيضاً لمعالجة بعض أمراض الرئة، ويوضح النص الآتي أسلوب معالجة إحدى تلك الأمراض ويذكر: " إذا مرض الشخص برئتيه ضع غبار القير على نار من حطب الشوك وليدخل الدخان في شرجه وفمه ومنخريه فيسعل، ثم يستحم بماء... ويدهن جسمه بخثارة اللبن وتسحق اللينسيد (؟) بالحليب ويوضع عليه ثلاثة أيام..."[٤٦].

وهناك من الحالات المرضية ما يتطلب استخدام أنبوب من القصب في عملية التبخير يوضع أحد طرفيه في دورق كبير والطرف الآخر يقوم المريض باستنشاق البخار من خلاله كما يشير إلى ذلك النص الآتي: "أعد إناء كبير وقَوّم جوانبها بعجين الحنطة وأغل الشراب المخمر فوق النار، ضع أنبوب قصب فيه ودعه يستنشق البخار بحيث يضرب رئتيه ويشفى"[٤٧]. ويبدو من النص أعلاه أن الهدف الأساس من استخدام أنبوب القصب هو لإيصال البخار إلى رئتي الرجل المريض بشكل مباشر وسريع ليكون تأثيره بالمرض أسرع ويحقق الغرض الذي من أجله استخدم هذا الأسلوب. ولا يستبعد أن يكون ذلك أيضاً متعلقاً بشخص المريض أو حالته الصحية، والتي قد تستوجب أحياناً استخدام أنبوب القصب في عملية التبخير واستنشاق البخار. وهناك من الحالات المرضية ما يوصي الطبيب باستخدام التبخير لعلاجها في حالة عدم استجابة المريض لغيره من العلاجات، ومما جاء في إحدى الوصفات العلاجية بهذا الخصوص: "إذا سعل الرجل... فاسحن... عود الوج والاصطرك... ودعه يشربها في زيت نقي دون طعام وسوف يشفى... وعندما لايكون التحسن ظاهراً اجلب إناءاً نحاسياً واسحن الخلة وعرق السوس... ولحاء الخوخ وتربنتين التنوب وأغلها وأضف إليها زيت... والبيبرة والخاثر ثم أحضر قِدراً نحاسياً كبيراً وضع عليه غطاء ثم

أطلِ فتحات جوانبه بعجين مخفوق واغل كل المواد المذكورة على النار، وبواسطة المواد المذكورة على النار، وبواسطة أنبوب مجوف دعه يستنشق البخار حيث سيؤثر على رئتيه وسوف يشفى"(٤٨).

وإذا كانت الوصفات الطبية السابقة المهيأة للعلاج بطريقة التبخير لم تحدد كميات المواد المستخدمة وأوزانها، فإن هناك وصفات أخرى قد أشارت إلى ذلك وإلى طريقة العلاج ومدته، كما يذكر ذلك النص الآتي: " ... الخلة وتربنتين التنوب وتربنتين الصنوبر... تقسم إلى أجزاء متساوية وتسحن وتنخل وتمزج في دهن كلية الغنم، وتضعها في إناء برونزي كبير على النار.. وتسد جوانبه بعجين الطحين، وادخل أنبوباً مجوفاً وضع عسلاً ولبناً في فمه ودعه يستنشق البخار من فمه ويصيب رئتيه، كرر هذا لسبعة أيام ويشفى "(٤٩). وأحياناً قد يستمر العلاج إلى تسعة أيام إذا ما تطلبت الحالة المرضية ذلك، إذ يذكر النص الآتي: "وإذا لم يكن التحسن ظاهراً فاحضر كوباً هلالياً وضع فيه عود الوج والقنة مع... واغلها، واحضر إناءاً برونزياً وسد جوانبه بالعجين واغرز فيه أنبوب مجوف... وضع نهايته في فمه ويسحب البخار إلى فمه... وسوف تمس رئتيه، تعيد هذا لتسعة أيام... وسوف يشفى"(٥٠).

وتشير الوصفات العلاجية الآشورية الخاصة بأمراض المعدة أيضاً إلى أن أسلوب المعالجة بالتبخير كان من الأساليب المهمة لعلاج بعض أمراض المعدة وآلامها، ومما جاء في إحدى تلك الوصفات: "احرق العفص مع الورد وليستنشق المريض الدخان ثلاث مرات في اليوم فإن المريض سيشفى"(٥١).

وفي نص آخر بهذا الخصوص: "إذا سيطر الألم على رجل... صمغ صنوبر حلب وصمغ الكلخ توضح على النار وتبخر بها مناخيره ثم تملأ فمك بزيت تنفحه في منخريه وسوف يشفى"(٥٢).

كذلك تضمنت الوصفات العلاجية الخاصة بالأمراض البولية والتناسلية أن التبخير كان من ضمن العلاجات التي كان يتم اللجوء إليها إذا ما استوجبت حالة المريض ذلك، ومن تلك الوصفات نقرأ ما يأتي: "إذا أصاب الرجل سقوط الشرج؟ فخذ سحلية الحائط (أبو برص؟) يغليها ويأكلها: وتبخر بالسعد وصمغ الكلخ وتربنتين القير والمرة والقنة على نار هادئة"(٥٣).

ومن خلال ما ورد في الوصفات الطبية المتعلقة بأمراض التسمم نجد أن التبخير كان أيضاً من ضمن الأساليب العلاجية التي يوصي بها الطبيب لمعالجة بعض الحالات المرضية الخاصة بالتسمم، ومن ذلك نقرأ: "إذا كان السم قد تغلغل في أعضاء المريض كلها خذ براعم الكَبر caper وجذور الأكاسيا وجذور vitex وجذور tamarisk، والبذور، وبذور الدفلى.. وبذور الشمار وعرق السوس... وعرق اللقاح الذكري، جفف هذه الأدوية الـ(١٦) واسحنها ثم دع المريض يتبخر بها على النار"(٥٤).

وقد تختلف مواد التبخير من وصفة لأخرى بحسب الحالة المرضية للشخص المريض ودرجة خطورة المرض، وقد يتبين ذلك بشكل واضح من خلال ما ورد في الوصفة الآتية الخاصة بمعالجة حالة من حالات التسمم بالتبخير إذ نقرأ بهذا الخصوص: "إذا تسمم الشخص خذ عشبة الخربق وعفص الصنوبر والكبريت الأسود والسدر والشمع وكلية كبش محروقة ومعها Acorus claarsus... وسيكون لديك سبعة عقاقير هي ذهب السم، اخلطها بدم السدر (عصير شجرة السدر) وبخر المريض بالخليط"(٥٥). وهناك من الوصفات العلاجية ما تضمن أربعة مواد فقط لعلاج بعض حالات التسمم عن طريق التبخير، إذ نقرأ في الوصفة الآتية: "إذا مرض الإنسان بسبب التسمم خذ كبريتاً أسود ونبات الكركم والقار وعشب البحر المحروق، وهذه العقاقير الأربعة للعلاج بالتبخير في حالات التسمم"(٥٦).

وعلى الرغم من عدم إشارة الوصفات العلاجية لأسباب حالات التسمم آنفة الذكر، فإن هناك من النصوص الأخرى ما نَوَه إلى أن بعض تلك الحالات كان سببها كما يبدو لدغة أفعى أو عقرب، إذ

ورد في النص الآتي ما يشير إلى ذلك: "الصلاة لتفادي شر الأفعى ومنعها من الاقتراب من الملك والحيلولة دون وصول شرها إلى الإنسان..."(٥٧).

وفضلاً عن ذلك فقد دلت الوصفات الطبية الآشورية على وجه التحديد ما يشير إلى أن أسلوب التبخير كان أيضاً من الأساليب التي استخدمت لمعالجة بعض الأمراض التي كانت تصيب القدم، ومن تلك الوصفات نقرأ: "القار وجبس النهر والكبريت الأصفر اخلطها مع بعضها وبخر بها قدمي المريض حتى يشفى"(٥٨). وعلى الرغم من عدم إشارة الوصفة الطبية لنوع المرض المُعالج بالتبخير، إلا أنه لايستبعد أن يكون مرتبطاً بتشققات كعب القدم أو غير ذلك من الحالات التي ما يزال الكثير من الناس يعاني منها إلى يومنا هذا وإحدى وسائل علاجها إما بطريقة التبخير أو المراهم.

كذلك نستشف من إحدى الرسائل الملكية من العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م) ما يشير إلى أن أسلوب التبخير كان من ضمن الأساليب العلاجية التي كان يهيئها الطبيب الآشوري لمعالجة المرضى من أفراد القصر الملكي، ومما جاء في هذه الرسالة الموجهة من الطبيب آرد – نَنَ إلى الملك الآشوري يطمئنه على صحة ولي العهد قائلاً له: "إلى سيدي الملك، من خادمك آرَد – نَنَ، تحياتي المخلصة إلى سيدي الملك.. إن كل شيء على ما يرام مع آشور – موكين – باليا، وليكن سيدي الملك مبتهجاً، وبخصوص مراسيم ١٦ من شهر أيلول ستهيئ المنضدة بخشب الصنوبر الكاسيا وسنضع في معطفه كتلة صغيرة من الملح والكاسيا و (خشب) الصنوبر... فإذا أرادت الآلهة سيدي الملك الخير لآشور – موكين – باليا على الرغم من ضعفه، وإذا أرادت آلهتك آشور وبعل ونابو له أن يعيش فإننا لن نتوقف يوماً إثر يوم عن (إجراء) المراسيم"(٥٩).

وبحسب ما ورد في النصوص الطبية والوصفات العلاجية المتعلقة بالتبخير والمشار إليها آنفاً، فإن الأداة الرئيسة للتبخير لاشك أنها كانت المبخرة أو الموقد المُعد للتبخير، ومن خلال ما ورد في القصة المعروفة بإسم (فقير نفر)(٦٠)، الذي انتحل فيها الرجل الفقير شخصية الطبيب إلى جانب غيره من الشخصيات الأخرى، يمكن أن نستشف أن المبخرة كانت جزءاً مهماً من أدوات الطبيب إلى جانب حقيبته الطبية، وهذا بالتأكيد يعطينا تصوراً واضحاً عن مدى أهمية التبخير في معالجة الأمراض عند الأطباء، وكذلك الحال عند الكهنة المتطببين، إذ نقرأ في إحدى الرقى التي أعَدها الكاهن المعزم ما يشير إلى قيامه بإعداد الموقد لحرق الأرواح الشريرة أو إبطال مفعول السحر المسبب للمرض، ومما جاء في ذلك: "أنا رئيس كهان التطهير، أنا أضرم النار، أقيم الموقد، أنا أحرق السحر المقوم"(٦١). وعلى الرغم من ندرة المعلومات المتوفرة عن المبخرة ومواقد التبخير والحرق المستخدمة في العلاج على وجه التحديد، وكذلك ندرة نماذجها الفنية بشكل مستقل، إلا أن بعض تلك الأشكال تم تأشيرها من خلال طبعات الأختام الأسطوانية وبعض المنحوتات الجدارية وهي مدرجة في هذا البحث(٦٢) ضمن (الشكل ١).

استخدامات التبخير في طب الشعوب القديمة

لم يقتصر أسلوب المعالجة بالتبخير على ما ورد في النصوص المسمارية المتعلقة بطب بلاد الرافدين فقط، وإنما وردت الإشارة إليه أيضاً في طب الشعوب القديمة، وفي مقدمتها الطب المصري القديم، إذ كان الاعتقاد السائد لدى المصريين القدماء أنه لكي يكون للرقى والتعاويذ تأثيراً إيجابياً وفعّالاً على من تُلقى عليه كان لابد من مراعاة بعض الأمور المهمة في نظرهم، ومنها أن يكون القائم بها متطهراً قبل تسعة أيام، وأن يتبخر بحيث تكون المبخرة من وراء أذنيه وأن يطهر فمه بالنطرون(٦٣)،

ولقد أتحفتنا القراطيس الطبية المصرية بالعديد من الوصفات الطبية المتعلقة بالتبخير، بعضها كان يضفي عليه الطابع السحري والبعض الآخر ابتعد عن ذلك، ومن ضمن الوصفات العلاجية التي وردت في قرطاس برلين الطبي بهذا الخصوص نقرأ ما يأتي: "بخور لإبعاد الأمراض الطبيعية (أي الإلهية) التي تميت موتاً: قات صوار، حجر منفي، دهن الأنعام (المواشي الصغيرة) يُبخر به الإنسان"(٦٤).

وهذه الوصفة كما هو ملاحظ هي لمعالجة مرض مجهول وخطير نسبت أسبابه إلى الآلهة، ومعالجته كانت بطريقة التبخير. كذلك تشير وصفة أخرى إلى معالجة التهابات الأذن بطريقة التبخير، وجاء فيها: "بخور لدرء المرض المسمى (هميت: لعله طنين الأذن أو التهابها): الداخل من الباب (أي فتحة الأذن): خرء قط، خرء تمساح، زرق اليمامة قرن (طبي) يبخر به الإنسان"(٦٥)، وتؤكد هذه الوصفة وإن طغى على موادها الطابع السحري أن التبخير كان من الأساليب التي لجأ إليها المصريون القدماء لمعالجة التهابات الأذن، وهو ما لاحظناه أيضاً عند العراقيين القدماء، وما يزال يُستخدم أسلوب التدخين والتبخير لمعالجة بعض أمراض الأذن والتهاباتها ضمن الطب الشعبي إلى الوقت الحاضر.

كذلك عالج المصريون القدماء حالة اعوجاج الفم بالتبخير، إذ نقرأ بهذا الخصوص: "بخور لدرء وانقباض شق وجهه واعوجاج؟ فمه: قات يبخر به الإنسان.."(٦٦).

فضلاً عن ذلك فقد تضمن قرطاس برلين الطبي معالجات بالتبخير لبعض أمراض المعدة، ومن ذلك نقرأ: "انب (باذنجان؟) عنب الذئب (قنات) سحوق الجميز، طين أسواني، شمع خروب يبخر به الإنسان"(٦٧). وعالجوا بالتبخير أيضاً بعض حالات التسمم الناجمة عن لدغة العقرب كما توضح ذلك الوصفة الآتية: "لدرء لدغة الشولة أي العقرب: قات، شمع صوار، حجر منفي (لازورد؟) شحم الأنعام يوضع على النار ويبخر به"(٦٨). واعتقد المصريون القدماء أن أسلوب التبخير مهم جداً لرفع رحم المرأة إلى محله، إذ نقرأ بهذا الخصوص: "غائط إنسان يوضع على كندر تبخر به المرأة فيلج الدخان داخل مخرجها". وفي وصفة أخرى مماثلة: "لقلق من شمع يوضع على فحم وتجعل المرأة دخانه يدخل مخرجها"(٦٩). وإلى جانب ذلك ومن باب الاهتمام بالنظافة والصحة العامة فقد وردت إشارات كثيرة حول تبخير المنازل والملابس وتبخير الفم وغيرها مما له علاقة بالنظافة والصحة العامة(٧٠).

ولم يكن أسلوب التبخير ببعيد أيضاً عن استخدامات السحرة والمتطببين العرب قبل الإسلام، إذ استخدم السحرة البخور في إحدى أوجهها لمعالجة بعض حالات الجنون التي عزوا أسبابها إلى سيطرة الجن على المريض، ومن أجل إخراجه وطرده من جسم المريض كان يُصار إلى إدخال المريض في مكان مظلم ثم تحرق البخور من حوله ويعطى بعض الأشربة التي يطغى عليها الطابع السحري، وكان الاعتقاد السائد لديهم أن شفاء المريض من مثل هذه الحالات كان لا يتم إلاّ بخروج الأرواح الشريرة من جسمه وأحياناً كان يصاحب هذا الأسلوب ضرب المريض ضرباً مبرحاً بالعصا لتسهيل عملية خروج الجن من جسم المريض"(٧١).

وفي العصر الإسلامي ومن باب التأكيد على أهمية التبخير في معالجة بعض الحالات المرضية، فقد ورد في كتاب الطب النبوي ما يشير إلى أهمية التبخير ببعض النباتات الطبية ومنها العنبر على سبيل المثال إذ قيل فيه: "إنه مقوٍ للقلب والدماغ والحواس وأعضاء البدن، نافع من الفالج واللَّقوة والأمراض البلغمية وأوجاع المعدة الباردة والرياح الغليظة من السداد: إذا شرب أو طلي به من خارج، وإذا تبخر به: نفع من الزكام والصداع والشقيقة الباردة"(٧٢).

ولم تقتصر المعالجة بالتبخير على الأمراض التي تصيب البشر حسب، وإنما تعدت ذلك إلى أمراض الحيوانات، إذا وردت الإشارة بهذا الخصوص إلى معالجة كثير من الأمراض التي تصيب الحيوانات بالتبخير ومنها على سبيل المثال "مرض القرحة عند الجمال وهو مرض جلدي يشبه مرض الحصبة عند الإنسان وله الأعراض نفسها تقريباً من حيث ظهور قروح ودمامل وبثور على جسم الجمل، يعالج بالتبخير بالبعر الحولي، أي البعر الذي أكمل سنة أو أكثر"(٧٣).

المحور الرابع: أسلوب معالجة بعض الأمراض بالتبخير في الوقت الحاضر وطرائق استعمالاته

لاشك أن أسلوب المعالجة بالتبخير واستمرار تأثيراته إلى الوقت الحاضر ما كان ليأخذ هذه الأهمية لولا وجود مؤشرات إيجابية على أهمية استخدامه في معالجة العديد من الحالات المرضية أو الإسهام في شفائها، إذ ثبت علمياً أن بخار الماء المغلي والدخان الناجم من عملية حرق البخور والنباتات المستخدمة في التبخير "يثير الدورة الدموية ويجلب إلى الموضع الذي يصل إليه من الجسم المزيد من الدم، وفي حالة الالتهاب بفعل الجراثيم أو بتأثير سم من الخارج (لدغة حشرة)، فإن الدم الزائد في مثل هذه المناطق يحمل مضاداً للسم، والعدد الوافر من جنود الجسم، كريات الدم البيضاء، لابتلاع الجراثيم وإبطال مفعول سمها أو لإخراج الجسم الغريب وطرده بالتقيح إلى خارج الجسم"(٧٤). ولا يعرف على وجه التحديد إن كان العراقيين القدماء قد توصلوا إلى هذه المعرفة الطبية الدقيقة لأهمية التبخير، وهو أمرٌ مستبعد كما يبدو لقلة معرفتهم وخبرتهم في مجال التشريح(٧٥)، أم كان استخدامهم هذا الأسلوب مرتبطاً بشفاء الحالات المرضية التي عولجت به، وهو الأرجح، وبذلك اكتسبوا الخبرة في هذا المجال.

ولاشك أن التوصل إلى هذه المعرفة الطبية واكتساب الخبرة في شفاء الحالات المرضية التي عولجت من خلاله، قد عزز من استخداماته وإسهاماته في معالجة العديد من الأمراض المنتشرة في الوقت الحاضر. بل أن أهميته دفعت إلى إيجاد طرائق لاستعماله وتوظيفها لمعالجة الأمراض عن طريق التبخير. واختلفت طرائق التبخير ومدته والمواد المستخدمة للحرق باختلاف الحالات المرضية، فهناك ما يعرف (بالحمام البخاري للرأس) وهذا النوع من التبخير يستخدم مرة واحدة كل يومين لمعالجة التهاب الجيوب الأنفية، ومرة واحدة أو مرتين في الأسبوع لمعالجة بحة الصوت والنزلات الشعبية (السعال)، ويومياً لمعالجة الدمامل أو ما يسمى بالجمرة (وهي مجموعة كبيرة من الدمامل)، وطريقة تبخير المريض على وفق هذا الأسلوب تقضي بوجود كرسيين متقابلين أحدهما يجلس عليه المريض والآخر يوضع عليه الإناء المُعد للتبخير وهو يحتوي على ماء مغلي مضاف إليه بعض النباتات الطبية ذات الفائدة لمعالجة الالتهاب، وحال جاهزية المريض للتبخير توضع على رأسه قطعة قماش تغطي جميع رأسه لحصر البخار في منطقة الألم ومنع انتشاره (الشكل ٢) فيما يقوم المريض بانحناء رأسه قليلاً باتجاه فوهة الإناء وتحريكه يميناً ويساراً للحيلولة دون احتراق وجهه، ويبقى المصاب على هذا الوضع مدة تتراوح بين (١٥-٢٠) دقيقة بعدها ترفع قطعة القماش عن الرأس ويذهب للفراش بعد أخذه حماماً بادراً(٧٦). وأحياناً يتم حرق بعض النباتات الطبية داخل غرفة، أو وضعها فوق مدفأة حيث ينتشر دخانها ويقوم المريض باستنشاقه(٧٧).

ولمعالجة الالتهابات التي تصيب الأذن بالتبخير يحضر إناء على شكل زجاجة وقمع ورقي يوضع فوق الإناء بشكل مقلوب ويوجه المريض أذنه باتجاهه ليدخل فيها البخار المتصاعد من فوهة القمع، وأحياناً يتم تبخير الأذن باستعمال أبريق الشاي الكهربائي أو العادي الذي يتصاعد من صبابته البخار بعد غليه (الأشكال ٣، ٤) ويبقى لمدة ما بين (١٠-١٢) دقيقة(٧٨).

وهناك أيضاً ما يعرف (بالحمام البخاري لأسفل البطن أو المقعد)، وهذا الأسلوب من التبخير يكون لمعالجة إحدى حالات حصر البول أو الحصاة البولية في المثانة أو الكلى أو غير ذلك من الأمراض ذات العلاقة، وعملية التبخير تتم بجلوس المصاب على كرسي مفتوح المقعد وقد وضع تحته إناء فيه ماء مغلي ويتصاعد منه البخار باتجاه أسفل مقعد المصاب، ولمنع انتشار البخار المتصاعد خارج الجسم المراد تبخيره يغطي المريض جسمه بالكامل أو القسم السفلي من جسمه مع الكرسي لتحقيق الهدف المراد من عملية التبخير (الشكل ٥) ويستمر الحمام البخاري بهذه الطريقة مدة من (١٥-٢٠) دقيقة[٧٩].

وعولجت بعض أمراض القدم بالتبخير أيضاً وطريقة التبخير تقضي بأن يجلس المصاب على كرسي ويعري قدميه وساقيه إلى الركبة، ثم يضع قدميه على عارضتين من الخشب تستندان على سطح الإناء المغلي المعد للتبخير، ومن خلالهما يتصاعد البخار نحو القدمين، ويفضل أيضاً وفق هذه الطريقة استخدام بطانية يُلف بها أسفل الجسم والإناء معاً لحصر البخار في منطقة الألم (الشكل ٦) ويبقى المريض بهذه الحالة مدة تقرب من (١٠-٢٠) دقيقة[٨٠].

ولاشك أن الطرائق المشار إليها آنفاً تؤشر أهمية المعالجة بالتبخير واستمرار العمل به إلى الوقت الحاضر، ومن المحتمل أن دوافع اللجوء إلى هذا النوع من أساليب العلاج فضلاً عن نتائجه الإيجابية في العلاج، تتمثل في عدم وجود تأثيرات جانبية له على صحة المريض وقلة تكاليفه وإنه في متناول الجميع، وهو يعد جزءاً مهماً من الموروث الحضاري الطبي لبلاد الرافدين. وما يزال في وقتنا الحاضر من يعالج آلام الأسنان بدخان السكائر لتسكينها وتخفيف حدة الألم، وكذلك بعض آلام الأذن عن طريق نفخ الدخان في أذن الشخص المريض مباشرةً أو بواسطة وسيلة مساعدة، وما يزال التبخير ببخار الماء المغلي المضاف إليه نبتة البابونج هو المفضل لدى الكثيرين من عامة الناس في مدينة الموصل لعلاج بعض أمراض الصدر وذات الرئة والزكام وغيرها من الحالات المرضية الأخرى ذات العلاقة بالطب الشعبي. وثبت طبياً أهمية هذا النوع من العلاج مما دفع إلى ضرورة استحداث ردهات خاصة بالتبخير في المستشفيات وبعض المراكز الصحية لمعالجة الحالات المرضية التي تتطلب هكذا علاج.

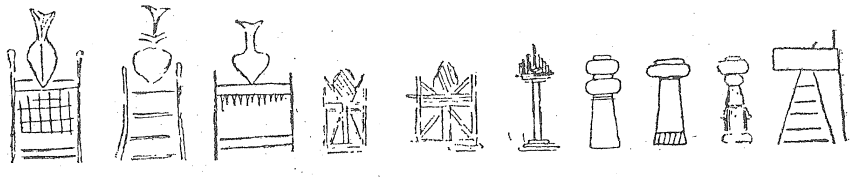

نماذج لمباخر ومشاعل مأخوذة من أختام أسطوانية

عن: مارتن ليفي، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية، ص٢٩١.

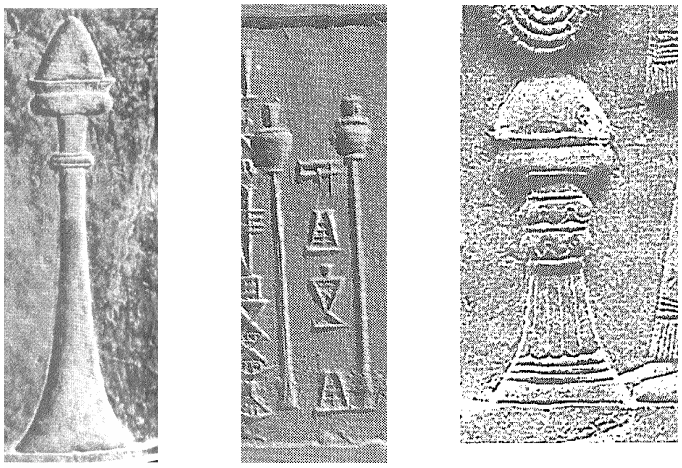

نماذج لمباخر مأخوذة من ختم طبيب ومنحوتات جدارية

عن: J. Read, Art and the Empire, P. ١٢٢-٨٦

وكذلك: G. Contenau, La mēdicine, P. ٤١

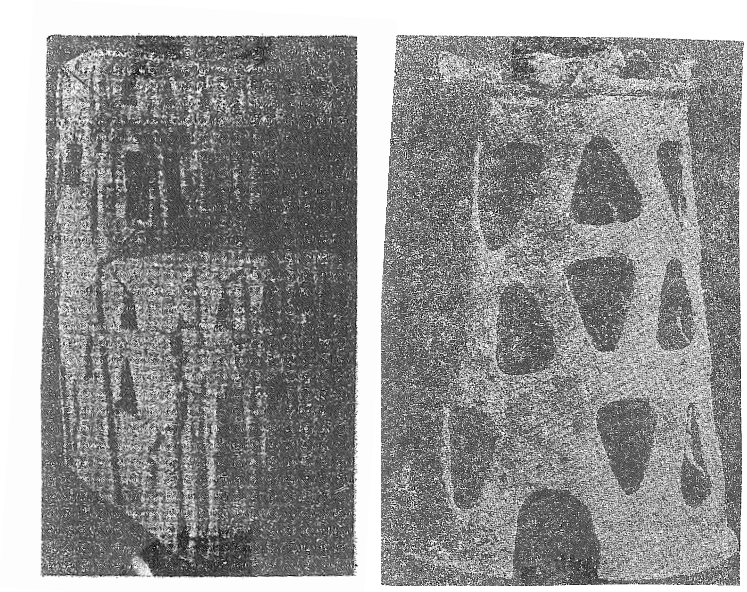

الشكل (١)

مواقد حرق مصنوعة من الطين

عن: مارتن ليفي، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية، ص ٢٨٩-٢٩٠.

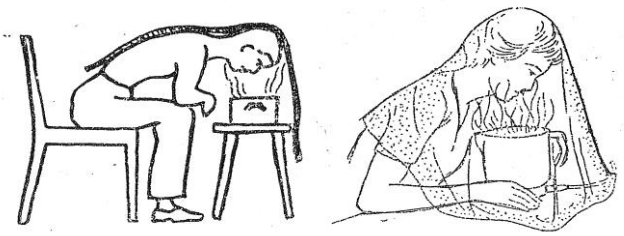

الشكل (٢)
رسم تخطيط لحمام بخار الرأس
عن: أمين رويحة، التداوي بلا دواء، ص٢٨.

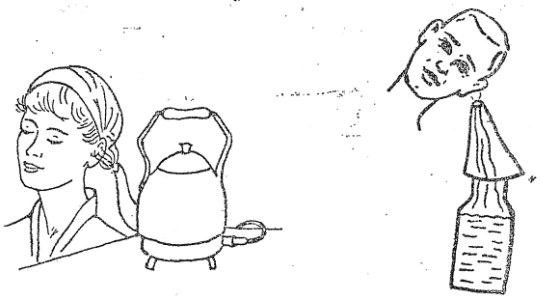

الشكل (٣) و(٤)
رسم تخطيط لحمام بخار الأذن
عن: أمين رويحة، التداوي بلا دواء، ص٢٩.

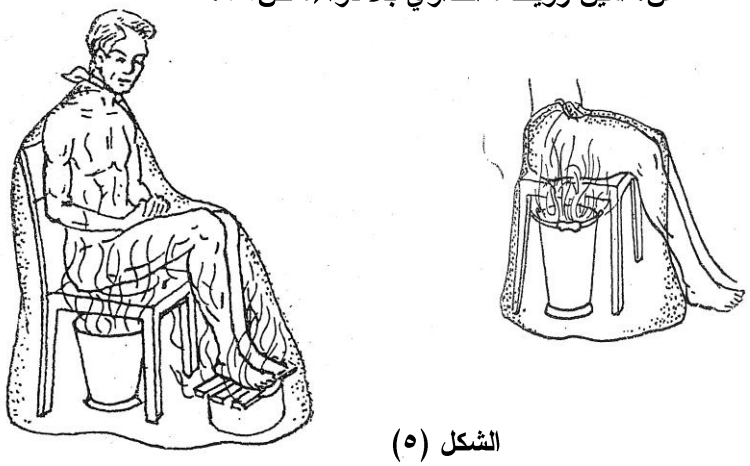

الشكل (٥)
رسم تخطيط لحمام بخار الجسم والمقعد
عن: أمين رويحة، التداوي بلا دواء، ص٣٠.

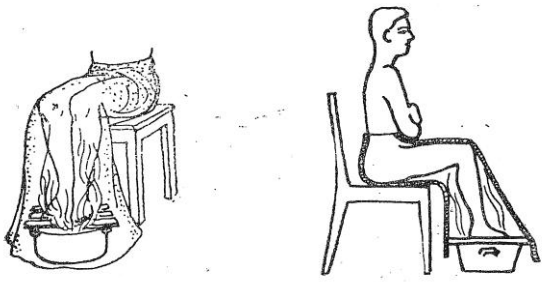

الشكل (٦)
رسم تخطيط لحمام بخار للقدمين
عن: أمين رويحة، التداوي بلا دواء، ص٢٩.

Fumigation and Its Uses IN Treatment of some Diseases by the Ancient Iraqis

Abstract

The cuneiform texts relevant to the medicine and treatment reflected what indicates that the style of fumigation was one of the remedial style which was used in ancient Iraq for treatment of many disease cases or contribution to their treatment. Irrespective of the reasons which caused the diseases and the look of the ancient Iraqis to that point; therefore the treatment by fumigation was also included with the styles of the priest (Ašipu), and the treatment of the physician Asū, the medical treatment.

Because of the prevailing thinking previously with the population of Mesopotamia that the disease in its first origin was that the act of the gods because of their anger with the human who committed an ignominious sin them or encroached on their sanctities, or disobeyed his parents, or committees a sin against his brothers or against one of the members of his family or clan, or other religious reasons; hence the gods were dominating the evil spirits over him which cams the diseases, and that these diseases as they think were not treated firstly but by expel those evil spirits from the human's body; therefore one of the important means they thought in treatment and expelling those evil spirits was through fumigation and spreading of incenses near to the patient or in his environ in which he lives, as many relevant cuneiform texts showed to the priest practices and rituals for treatment. In addition, fumigation according to the Babylonian texts and treatment prescriptions was one of the medical styles of (Asū) the role of which started to be clear in treatment independently since the beginning of the second millennium B.C., whereas many of those texts bestowed upon us with what indicated that the style of fumigation was used for treatment many disease cases beginning from the head to the two feet. Some of them were irrelevant to the feet, diseases of head, eyes, ears, chest, stomach, then urinary diseases, also the states of poisoning. Those prescriptions showed that the style of treatment by using fumigation was according to the nature of the disease state and its development. The use of this style is not restricted in the treatment to the Mesopotamians only, but an analogue was found also in the ancient Egyptian medicine and other medicine of the ancient nation it is still used until now to treat many of the various disease cases.

Therefore; lights are shed on this subject, whereas this research was divided up into four axes, the first axis dealt with the origin of derivation of the word fumigation and its meanings in the two languages Arabic and Akkadian. The second axis included the uses of fumigation in the religious rituals and the practices of the priests relevant to the remedy. Then, the third axis has concentrated on examples of the medical prescriptions relevant to the treatment of the diseases by means of fumigation. Besides, the fourth one included the style used in treatment some diseases by fumigation and the ways of its uses at present.

الهوامش

(١) إبراهيم أنيبس وآخرون، المعجم الوسيط، ج١-٢، ط٢، (بيروت: ١٩٩٠)، ص٤١.
(٢) بطرس البستاني، قطر المحيط، (لبنان: دس)، مجلد (١)، ص٧٦.
(٣) إبراهيم أنيس وآخرون، المصدر السابق، ص٤١.
(٤) بطرس البستاني، المصدر السابق، ص٧٦.
(٥) إبراهيم أنيس، المصدر السابق، ص٤١.
(٦) المصدر نفسه، ص٤١.
(٧) المصدر نفسه، ص٤١.
(٨) CAD, b, P. ٢٨.
(٩) رينه لابات، قاموس العلامات المسمارية، ترجمة: الأب البير أبونا وآخرون، منشورات المجمع العلمي، (بغداد: ٢٠٠٤)، ص ٣١٨؛ CAD, b, P. ٢٩.
(١٠) رينه لابات، قاموس العلامات، المصدر السابق، ص ٣٧٧.
(١١) المصدر نفسه، ص ٣٧٧.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٥
(١٣) سامي سعيد الأحمد، معتقدات العراقيين القدماء في السحر والعرافة والأحلام والشرور، المؤرخ العربي، عدد (٢)، ١٩٧٥، ص ٦٦.
(١٤) يشير التشابه في مضمون النصوص السومرية والأكدية إلى أن المصطلح السومري Lū.MAŠ.MAŠ يمثل نفس الشخص الذي يدون باللغة الأكدية أشِبُ. ينظر: CAD, A., I/II, PP. ٤٣٥-٤٣٣.
(١٥) للمزيد من المعلومات عن هذه الأساليب ينظر: عبدالرحمن يونس عبدالرحمن، الطب في العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، (الموصل: ١٩٨٩)، ص ١٦-٢٣.
(١٦) تعرف أريدو حالياً بإسم (أبو شهرين) وتقع أطلالها غرب مدينة الناصرية، وتبعد عنها مسافة ٤٠كم تقريباً. قحطان رشيد، الكشاف الأثري في العراق، (بغداد: ١٩٧٨)، ص ٢٥٢.
(١٧) في السومرية عرفه سكان بلاد الرافدين بإسم (انكي) ويعني حرفياً سيد الأرض، وفي اللغة الأكدية عرف بإسم (ايا) ويعني بيت الماء، وهو يمثل في نظرهم معبود المياه، ويأتي من حيث الأهمية بالنسبة لمجمع الآلهة بالمرتبة الثالثة بعد المعبود آنو وأنليل.

Thorkild, H., Jacobson, Word of the Image of Tammuz and others Essays on Mesopotamia History and the Culture, (Cambridge: ١٩٧٠), P. ٢٣;

كذلك ينظر: محمود الأمين وبشير فرنسيس، شعار سومر رمز الحياة الخالدة والحكمة والعرفان، (بيروت: ٢٠٠٧)، ص ٣١-٣٣.

(١٨) كان (مردوك) في نظر سكان بلاد الرافدين معبود مدينة بابل الرئيس وبطل قصة الخليقة البابلية. للمزيد ينظر: رضا جواد الهاشمي، مردوخ عظيم آلهة بابل، مجلة المورد، مجلد (١٦)، عدد (٣)، ١٩٨٧، ص٤٠-٤٨.
(١٩) اعتقد العراقيون القدماء بوجود أرواح شريرة مسببة للأمراض يختص كل منها بمرض معين ومن تلك الأرواح ما كان يظهر بشكل عفاريت، وأعطيت لبعض منها أسماء مثل العفريتة (نمترُ) namtaru، وهذه بحسب نظرة القدماء كانت متخصصة للإصابة بمرض الطاعون والأمراض الخبيثة، والعفريت (أطِمُ) eǐemu، وهو المسؤول عن أمراض الرأس والحمى، والعفريتة (لَمَشتُ) Lamaštu. وصنف الباحثون والمختصون مجموعة من التعاويذ كانت تستخدم ضد تلك العفاريت، كان من أهمها تعاويذ (الشربُ) و(المقلو) المستندتان على الحرق. للمزيد عن ذلك ينظر: سامي سعيد الأحمد، معتقدات العراقيين القدماء، المصدر السابق، ص٦٧؛ هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان، ط١، (الموصل: ١٩٧٩)، ص ٣٤٦.
(٢٠) H. Sigerst, A History of Medicine Primitiv and Archaic Medicine, (New York: ١٩٦٧), P. ٤٦٨.
(٢١) Ibid, P. ٤٦٨.
(٢٢) Ibid, P. ٤٦٩.

ينظر كذلك: جين بوتيرو، الديانة عند البابليين، ترجمة: وليد الجادر، (بغداد: ١٩٧٠)، ص ١٥٩-١٦٠.

(٢٣) كان المعبود شمش من جملة الآلهة التي عبدت في العراق القديم، واسم هذا الإله يلفظ باللغة الأكدية (شمش) وهو يمثل إله العدل والحق والشمس. ينظر: فوزي رشيد، الديانة، حضارة العراق، ج١، (بغداد: ١٩٨٥)، ص ١٥٨.

(٢٤) هاري ساكز، الحياة اليومية في العراق القديم، بابل وآشور، ترجمة: كاظم سعد الدين، (بغداد: ١٩٧٠)، ص ١٥٩-١٦٠.

(٢٥) سامي سعيد الأحمد، معتقدات العراقيين القدماء، المصدر السابق، ص٦٤؛ طه باقر، ديانة البابليين والآشوريين، سومر، ج٢، مجلد (٢)، ١٩٤٦، ص١٩٦.

(٢٦) Campbell, T., Assyrian Prescriptions for diseases of the Ears, JRAS, Part ١, (London: ١٩٣١), P. ٢-٣.

(٢٧) Edith. K. Ritter, Magical-expert (=Ašipu) and physician (=Asū) Notes on two complementary Profession in Babylonian Medicine, AS, No. ١٦, (Chicago: ١٩٦٥), P. ٣١١.

(٢٨) رينه لابات، من الطب الآشوري، ترجمة: عبداللطيف البدري، (بغداد: ١٩٧٦)، ص ٩-١٠.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٩-١٠.

(٣٠) Robert, H., Pfeiffer, State Letters of Assyrian, Vol. ٦, (New York: ١٩٦٧), P. ١٨٢.

(٣١) أميرة عيدان، الكاهنات في العصر البابلي القديم، دراسة في ضوء النصوص المسمارية المنشورة، رسالة ماجستير غير منشورة، (بغداد: ١٩٩٩)، ص ١٢-١٣.

(٣٢) تجدر الإشارة إلى أن البحث ركز على إدراج الوصفات الطبية ذات العلاقة بأسلوب التبخير وهو موضوع البحث ولم يتناول تفاصيل النباتات والأعشاب المستخدمة في هذا الأسلوب كونها تحتاج إلى بحث منفرد عن هذا الموضوع. ويمكن الرجوع بهذا الخصوص إلى المصادر الآتية: طه باقر، دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية، سومر، عدد (٨)، ج١-٢، ١٩٥٢، ص١-٣٦، ص١٤٥-١٨٢؛ وكذلك: مؤيد محمد سلمان، دراسة لأهم النباتات والأعشاب الطبية في العراق القديم، في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (الموصل: ٢٠٠٦)، ص ٥٧-٥٨.

(٣٣) CAD, ١/١١, P. ٣٤٤.

(٣٤) ينظر حول هذا الموضوع: عبدالرحمن يونس عبدالرحمن، الطب في العراق القديم، الفصل الرابع.

(٣٥) رينه لابات، من الطب الآشوري، المصدر السابق، ص ٢-٢٤.

(٣٦) Campbell, T., Assyrian prescriptions for diseases of the Ears, Op. Cit., P. ٥.

(٣٧) Ibid, P. ١٩.

(٣٨) Ibid, P. ١٩.

(٣٩) رينه لابات، من الطب الآشوري، المصدر السابق، ص ٤-٢.

(٤٠) Campbell, T., Assyrian prescriptions for diseases of the Ears, Op. Cit., P. ٧.

(٤١) حكم للمدة من ٦٨٠-٦٦٩ ق.م واستلم عرش المملكة الآشورية بعد مقتل والده سين - اخي - اريبا عام ٩٨١ ق.م. للمزيد من المعلومات عن هذا الملك ينظر: أحمد حبيب سيد الفتلاوي، أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (واسط: ٢٠٠٦).

(٤٢) مؤيد محمد سلمان، دراسة لأهم النباتات والأعشاب الطبية في العراق القديم، المصدر السابق، ص ٥٧-٥٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ص١٦٠.

(٤٤) رينه لابات، من الطب الآشوري، المصدر السابق، ص ٦-١٢.

(٤٥) مؤيد محمد سلمان، المصدر السابق، ص ١٦١.

(٤٦) H. Sigerest, Op. Cit., P. ٤٨٨.

(٤٧) فاروق ناصر الراوي، العلوم والمعارف، حضارة العراق، ج٢، (بغداد: ١٩٨٥)، ص٣٣٥؛ هاري ساكز، الطب والأطباء في بابل، ترجمة: يوسف داود عبدالقادر، مجلة التراث الشعبي، (٥-٦)، السنة السابعة، ١٩٧٦، ص٨٣.

(٤٨) رينه لابات، من الطب الآشوري، المصدر السابق، ص ٦-٩.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٦-١٤-٦-١٥.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٦-١٧.

(٥١) Campbell, T., Assyrian medical prescriptions for diseases of the stomach, RA, Vol. XXVI, No. ٢, ١٩٢٩, P.٧٠.

(٥٢) رينه لابات، من الطب الآشوري، المصدر السابق، ص ٥-١٦.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢-٧.

(٥٤) Campbell, T., Assyrian medical prescriptions against šimmatu "poison", RA, Vol. XXVII, ١٩٣٠, P. ١٢٧.

(٥٥) Ibid, P. ١٢٧.

(٥٦) Ibid, P. ١٢٨.

(٥٧) Ibid, P. ١٢٨.

(٥٨) Campbell, T., Assyrian prescriptions for diseases of the Feet, IARS, ١٩٧٣, P. ٢٧٨.

(٥٩) Robert, H., Pfeiffer, Op. Cit., P. ٢٠٤.

(٦٠) المعلومات عن هذه القصة تستند على نص مكتشف من مدينة بابل يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد يعرف (بحكاية الرجل الفقير من نفر) وإحدى الشخصيات التي مثلها كانت شخصية الطبيب بزيه الرسمي وأدواته والتي من خلالها أمكننا التعرف على زي الطبيب في العراق القديم وأدواته التي كان يحملها ومن ضمنها المبخرة. ينظر حول تفاصيل هذه القصة:

A.Leo oppenheim, Mesopotamia medicine, Bulletin of the History of medicine, Vol. XXX, No. ٢, ١٩٦٢, P. ١٠٦.

(٦١) حكمت بشير، الرموز الفكرية في حضارة وادي الرافدين، (بغداد: ٢٠١٠)، ص٨٩.

(٦٢) مصادر الأشكال المعتمدة:

مارتن ليفي، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، ترجمة: محمود فياض وآخرون، (بغداد: ١٩٨٠)، ص ٢٨٩-٢٩١.

J. Reade, Art and the Empir, (British: ١٩٩٥), PP. ٨٦, ١٢٢.

G. Contenau, La mēdicine En Assyrie Et En Babylone, (Paris: ١٩٣٨), P. ٤١.

(٦٣) شريف يوسف، السحر عند البابليين والمصريين والعرب قبل الإسلام، مجلة التراث الشعبي، عدد (٦) ١٩٧٨، ص ٥٠-٥١.

(٦٤) حسن كمال، الطب المصري القديم، ط٢، (القاهرة: ١٩٩٦)، ص ٩٣.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٧٠) بول غليونجي، طب وسحر، (القاهرة: دس)، ص ١٠٥.

(٧١) شريف يوسف، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٧٢) ابن قيم الجوزية، الإمام شمس الدين محمد ين أبي بكر بن أيوب الدمشقي، الطب النبوي، (دمشق: ١٩٨٨)، ص ٢٨٨.

(٧٣) أسامة فوزي، الأمراض والنباتات والعقاقير الشعبية في دولة الإمارات العربية المتحدة، مجلة التراث الشعبي، عدد (٩-١٠)، السنة الثانية عشر، ١٩٨١، ص ٢٨١.

(٧٤) أمين رويحة، التداوي بلا دواء، ط٢، (بيروت، ١٩٧٤)، ص ٢٦.

(٧٥) عبدالرحمن يونس عبدالرحمن، الطب في العراق القديم، المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٧٦) أمين رويحة، المصدر السابق، ص ٢٧.

(٧٧) أمين رويحة، التداوي بالأعشاب طريقة علمية تشمل الطب الحديث والقديم، (بيروت: ١٩٧١)، ص ٣٣.

(٧٨) أمين رويحة، التداوي بلا دواء، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٧٩) أمين رويحة، التداوي بالأعشاب، المصدر السابق، ص ٣٣.

(٨٠) أمين رويحة، التداوي بلا دواء، المصدر السابق، ص ٢٨-٣٠.